

## «كتاب القلادة» للشاعر الكردي شيركو بيكه س إلى العربية: المرأة الكردية في مواجهة مجتمعها الذكوري والأصولية ونظام البعث

بيروت – «القدس العربي»

– من ناظم السيد:

أظنّ أن ترجمة كتاب لشيركو بيكه س إلى العربية إثراء للشعر العربي، تماماً كما كان الشعر العربي رافداً من روافد القصيدة الكردية. هذا ما يمكن أن يستشعره القارئ أمام «كتاب القلادة» لشيركو بيكه س، والذي نقله إلى العربية هيوأ عزيز. وراجعه محي الدين زه كنه، ونشرته دار «الجميل»، أمام جدة هذا الكتاب من ناحية الفكرة، وحدائث الأسلوب وغناه، وثراء مادته الحضارية، لا بدّ من الشعور بهذه الإضافة التي أشرت إليها.

«كتاب القلادة» شبيه من حيث منبت الفكرة بكتاب سابق للشاعر سبقته ترجمته إلى العربية وهو كتاب «الكرسي» الذي ترجمه سامي إبراهيم داوود، وأصدرته دار «المدى». في هذا الكتاب يتحدّث شيركو بيكه س من القلادة ضميراً للحديث عن تاريخ الأكراد وأقوامهم. هذا ما فعله الشاعر في «كتاب القلادة» حين أخذ من هذا الشيء – أي الكرسي – صوتاً وى به تاريخ الأكراد وبيئتهم الطبيعية واجتماعهم وحياتهم السياسية ومأسيتهم وأفراحهم وأغانيهم وهواجسهم. لقد تحوّل الكرسي إلى شاهد يؤرّخ حضارة شعبي. هذا ما يفعله الشاعر في «كتاب القلادة»، مع تنوعيات جديدة ستبرز من خلال سياق هذا المقال.

يتحدّث «كتاب القلادة» عن الحياة الاجتماعية للأكراد على وجه الخصوص، مع تعريجات على التاريخ السياسي للبلاد – هنا بطله الجازر الذي ارتكبت في حقهم، «القلادة» هنا بطله النص الذي يتعد على مدى ما يقارب 120 صفحة. منذ البداية البليطة أنثى. ثوري هذه القلادة التي تنضم إليها قادات في بيوت أثرياء وفقراء وقلادات ناجيات من مجازر وقلادات في محال للجواهر. مأساة المرأة في المجتمع الكردي. من المعروف أن المجتمع الكردي لا يقل ذكورية من أحمر الشفاه والمسكرة والمرأة والخاتم والأسورة والفسقان، تقابلها أدوات ذكورية من شفرة الحلاقة والخنجر والعمامة والسرورال والشارب. يعدد الشاعر إلى شخصنة هذه الأدوات التي يستخدمها الرجال والنساء في حياتهم اليومية، ليُجرى على نسئتها حوارات وتمنيات وشكاوى وقائع. هكذا ندعو أمام نص مستمد كلياً من الواقع، لكن عبر أبطال متخيلين كلياً.

يتحدّث «كتاب القلادة» عن أنواع من العنف تعرّض لها الكردي ول يزلزلون: العنف القبلي، العنف الأصولي الديني، عنف نظام صدام حسين. إنه يسمي الأشياء باسمائها عبر أشيائه الأصلية. عبر هذه الوقائع من أحداث وأسما، ينسج بيكه س الرمز. بمعنى أدبي: هناك من يجعل الرمز واقعا، وهناك من يحول الواقع إلى رمز. هذا العبور بين الرمز والواقع يقننه بيكه س في معطم كتبه، وبمنها «كتاب القلادة».

ما يقوله «كتاب القلادة» ينبغي ألا يشغلنا عن أسلوب الشاعر في هذا الكتاب الذي قص فيه عدد من الأساليب والمناهج والأنواع، «كتاب القلادة» هو كتاب شعر في الأساطير. لكن الشعر

الشاعر اليميني الراحل عبد الله البردوني بمناسبة الذكرى السنوية العاشرة لرحيله. لوحة الغلاف للثلاثة السنوية هالة فيصل.

ويضم باب قضايا ثلاثة بحوث عن الديمقراطية والدين وقضايا المرأة الفلسطينية. في البحث الأول تستعرض الباحثة نادية أبو زاهر خلفية الأحزاب المسيحية الديمقراطية في بعض الدول الأوروبية وتطور موقف التدينيين المسيحيين من الديمقراطية. ويشير البحث إلى المطالبة في الماضي بديمقراطية مسيحية.

وفي البحث الثاني يستعرض عدلي الهواري مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.

تعتزم التعريف بالأدب العربي في العالم من خلال إطلاب جديدة «الغاؤون» لطبعتها الإنكليزية قريباً، ومن خلال إنشاء دار «الغاؤون» ذراعاً إنكليزية ستعنى بترجمة الأدب العربي، قديمه وحديثه.

وستيضمّن حفل الافتتاح تشدين قاعة للمحاضرات والأمسيات ستحمل اسم القاعة 100 شخص) لدوره الريادي في الحركة الشعرية العربية الحديثة والذي يصور مختلف الشعراء العرب والأجانب، وبدواوين نادرة من الطبقات الأولى، وطوابع عديدة حملت صور الشعراء، إضافة إلى مخطوطات وصور ومقتنيات للشاعر شوقي أبي شقرا خصر بها هذا النوع من الموضوع رسالة ماجستير.

تفتتح «الغاؤون» في العشرين من تشرين الأول (أكتوبر) المقبل مقرها الجديد في مدينة ديترويت – ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية (منطقة ملغن ديل – شارع هانأ)، بعدما تمّ الترخيص لها كمؤسسة ثقافية.



شيركو بيكه س

ترجمة: هيوأ عزيز

مراجعة: محي الدين زه كنه

صورات لعل

حملة «الأطفال»، عن «دائرة الأمن الحمر» في

السليمانية (صارت اليوم متحفاً). عن القسيزاد

علي مردان وحسين عارف، والقاص شيرزاد

حسين الذي عرف بقصصه الاجتماعية ولا سيما

العلاقة بين الجنسين، عن قنار كابان القاص

والغني والناضل الذي أعدم في الإنشائيات

من القرن الماضي، عن عبد الخالق معروف

الكاتب الذي استشهد على أيدي أصوليين في

العثمانيات من القرن الماضي بعدما أهدر خطباء

دمه. يستخدم بيكه س أسما حقيقية ووقائع

حقيقية، عايداً إلى إقامة صلة بين الرمز والواقع.

لنقل هنا انه يراد الرمز إلى أصله. يرجع الأسطوري

إلى منبته الحقيقي قبل أن يغدو أسطورة. لا

يريد الشاعر أن يُقرأ كتابه هذا على أنه ضرب

من الخيال. الخيال هنا فتاح وتمويه. أشيأوه

الشاعرة، أبطاله المؤسسة، مجرد أدوات فنية

لقول الواقع. هكذا تعود القلادة إلى كونها امرأة

في الأصل، ويهود الخنجر إلى كونها رجلاً في

الأصل. عبر هذه الوقائع من أحداث وأسما،

ينسج بيكه س الرمز. بمعنى أدبي: هناك من

يجعل الرمز واقعا، وهناك من يحول الواقع إلى

رمز. هذا العبور بين الرمز والواقع يقننه بيكه س

في معطم كتبه، وبمنها «كتاب القلادة».

ما يقوله «كتاب القلادة» ينبغي ألا يشغلنا عن

أسلوب الشاعر في هذا الكتاب الذي قص فيه

عدد من الأساليب والمناهج والأنواع، «كتاب

القلادة» هو كتاب شعر في الأساطير. لكن الشعر

حديثة. وفي العدد نماذج من رسوم الفنان السوري

الراحل برهان كركوتلي بمناسبة إقامة

معرض في جامعة بيززيت لرسم كانت

في بيروت أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان

عام 1982.

عنون موقع المجلة:

www.oudnad.net

«الأعمال الكاملة لإنسان آلي»

في لبنان .. برعاية دار «نلسن»

بيروت – «القدس العربي»:

استضافت «دار نلسن للنشر» في

مقرها ببيروت الشاعر المصري شريف

الشافعي، حيث وقّع الكاتب اللبناني

سليمان بختي مدير الدار اتفاقية مع

الشاعر لتوزيع ديوانه متعدد الأجزاء

«الأعمال الكاملة لإنسان آلي» في لبنان.

وذلك بعد أسابيع قليلة من صدور الجزء

الأول من الديوان في طبعة جديدة عن

«دار تائه» السورية بعنوان «البحث عن

نيرمانا بأصابع ذكية».

وأكد سليمان بختي أن دار نلسن، التي

يديرها، معنية دائماً بنشر وتوزيع

الإبداعات الجديدة والأصيلة، وقال:

«يهمنا تعميم تجربة «الأعمال الكاملة

إنسان آلي» قدر جهدنا، فهي تجربة

مؤثرة في مسار الحركة الشعرية

الحديثة، برز من خلالها صوت شعري

مختلف شكلاً ومضموناً عن قصيدة

النثر التقليدية السائدة في عالنا

العربي».

وقال الشاعر شريف

الشافعي إن إتاحة

«الأعمال الكاملة لإنسان

آلي» بشكل دائم في بيروت

عاصمة الكتاب العربي،

ومن قبلها في القاهرة

دمشق وعمّان والمنا

وعدم من العواصم العربية

هي مدعاة لسعادة وفخر «إنسان

آلي»، مؤلف النص، الذي خاطب

الإنسان الحقيقي في كل مكان بلغة

بسيطة محملة بغيوضات الشعرية

الخام، فتخطت جويته الحدود

الجغرافية الضيقة، على مستوى

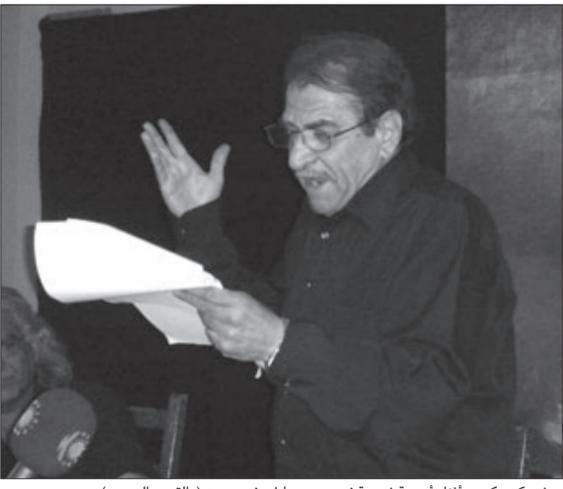
التلقي، والاحتفاء التقدي، وأيضاً على

مستوى التوزيع.

وأوضح الشافعي أن الرمان الحقيقي

في تجربة «الأعمال الكاملة لإنسان آلي»

قد اعتقد على الجواهر الشعري الطازج،



شيركو بيكه س أثناء أمسية شعرية في «مسرح بابل» في بيروت (القدس العربي)

هنا ينزاح قليلاً ليفسح مجالاً للنثر، والنثر هنا

أنواع: السريدي والحكايات والحواري والمسروري

والوصفي. يتداخل الشعر مع الحكاية والمسرح

والمقالة والغماء. يوظف الشاعر أنواعاً أدبية في

نص واحد، مستقيداً في الوقت نفسه من الأغنية

والموسيقى الشعبيتين. بضرية واحدة، شعر بيكه

س هو صوت شعبي. من الواقع إلى الأسطورة،

من النثر إلى الشعر، من الخرافة إلى الأغنية.

من كتاب الموسيقى إلى المأثلة، من الإيجاز إلى اللوحة،

من التاريخ والجغرافيا والمناخ، إلى كتابة

السياسة والاجتماع والدين، هكذا ينقل شيركو

بيكه س جامعا حضارة أمة في نص واحد.

أخيراً، لا تقوتني الإشارة إلى إسهاب الشاعر

في ذكر وقائع وتعداد مأس ضدّ النساء أو ضدّ

الأكراد أفراداً وشعباً، إسهاب يغدو نوعاً من

التقرير. مثل هذا التقرير أوقع النص في بعض

اللحظات بالخطابية والإنشائية التي تبغي

استدرا التعاطف أكثر مما تسعى إلى بناء فني.

في كل حال، كل أنويع الشاعر الذي استعمله

الكتاب معتدراً سلفاً من القراء والنقاد إشارة إلى

صراحة المستويات في هذا النص وإن لم يعن ذلك

تقرير. ليس هذا الكتاب شعراً مجرداً ولا نثراً

محضاً، لا نثراً ولا سرداً، لا مسرحية ولا ملحمة،

ليس كلاماً متفكراً ولا كلاماً عادياً، إنه ليس شعراً

وطولاً ولا قصّة واحدة ذات أصول متعاقبة، بل

بمثابة وعاء جامع يحوي جميع هذه العناصر في

كيانه المزاج.

المشتعل بذاته، وعلى الثقائحية والبساطة،

حيث حاول «الربوبيت» المبدع أن يتمرد على

قوانين روبيوات القطيع، وبرامج التشغيل

والإدراك الجاهزة، وأن يكون صوت نفسه

بحرية تامة، خارج كليشيهات الكتابة

المألوفة، وخارج الحياة النمطية المشروطة

التي تساوي اللاشعري (يقول الروبوت في

أحد المقاطع: الأهمّ لمكبنة ميتة، من الكهرباء

وبرنامج التشغيل، أن تصحّص قادرة على

الاشعريّة وقتما تشاء).

وأشار الشافعي إلى استفادة صديقه

الربوبيت. المؤلف الافتراضي للنص

في تجربته من منجزات العصر الرقمي

الذي يعيشه ونخرط فيه يوماً بعد يوماً،

وخصوصاً التفوّق العلمي والتقني وتيرة،

والانتماءات والإنترنت، وقد تجلّى ذلك أيضاً

في شكل الكتاب وإخراجها المغاير، وفي

النهاية يبقى السؤال حائزاً: هل إنسان

المعاصر الذكي، هو «إنسان» فعلا كامل

الإرادة والبادرة، و«ذكي» حقاً؟ وهل يجوز

للروح الفريدة الغدة أن تحلم بالنجاح من

الربوبيت. المؤلف الافتراضي للنص

في تجربته من منجزات العصر الرقمي

الذي يعيشه ونخرط فيه يوماً بعد يوماً،

وخصوصاً التفوّق العلمي والتقني وتيرة،

والانتماءات والإنترنت، وقد تجلّى ذلك أيضاً

في شكل الكتاب وإخراجها المغ



# كتاب للناقد والتشكيلي صبري منصور يرى أن تجميل القاهرة والأقصر جريمة: انتقادات حادة لتشويه الوجه الجمالي لمدينة عريقة

القاهرة - «القدس العربي»

من محمود قرني:

صدر للفنان التشكيلي والناقد الدكتور صبري منصور كتاب جديد عن سلسلة الفن التشكيلي التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة والتي يترأس تحريرها الدكتور مصطفى عبدالمعطي تحت عنوان «إضاءات تشكيلية»، يضم الكتاب حوالي ثمانية وعشرين بحثاً ودراسة منشورة وتوزعت حول تناول أعمال بعض الفنانين المصريين مثل حامد ندا، جمال السجيني، مي رزقي، أحمد صبري، رمسيس يونان، سمير رافع، وبعض الفنانين العالميين مثل المعماري انطونيو جاودي، تيرنر، وديفيد هوكني.

هذا بالإضافة إلى عدد من الأبحاث المعقدة حول بعض الظواهر الفنية والأنشطة المرتبطة بالذائفة العامة وسوف نحاول هنا تقديم إطلالة على بعض تلك الأبحاث لا سيما ما تناول منها شائناً عاماً وماساً.

## أزمة الفنون الرفيعة

في بحث حول الفن التشكيلي وأزمة الفنون الرفيعة في مصر يرى الدكتور صبري منصور أن الفن التشكيلي كان أحد علامات النهضة انعدمت أو أضرها على فنانين كبار مثل محمود مختار ومحمود سعيد ومحمد ناجي ورأغب عياد وغيرهم، ويرى منصور أن ميراث مصر الحضاري المتنوع والوعلى في القدم ما زال كامناً في نفوس المصريين ينتظر من يهد له السبيل إلى الانطلاق، ويؤكد منصور أن حركة مساهمة وفعالا في الحياة الثقافية المصرية، المتابعة التي جعلت من الفن التشكيلي عنصراً مساهماً وفعالاً في الحياة الثقافية المصرية، حيث تشكلت جماعات مثل الفن والحرية، الفن الحديث، الفن المعاصر، والفن والحياة، غير أن منصور يرى أن فترة الستينيات شهدت تراجعاً كبيراً لتستقبل بدايات مرحلة انحسار أوصلنا إلى ما يعاناه الفن التشكيلي في مصر اليوم من فقدان البريق واختلاط الجاد بالهائل.

ويؤكد صبري منصور أن الراصد لحياتنا الثقافية بشكل عام خلال العقود الماضية يستطيع أن يلمح ظاهرة النقص المزاد في ثقافة المواطن العادي الذي أصبح لا يضايقه من الفنون إلا ما هو فاجح، ولا يستطيع إلا ما هو بسيط وساذج وتسدت المستويات السوقية البتذلة ساحة الإبداع المصري في شتى مجالاته، ويضيف منصور أن تلك الظاهرة أضرّت مسار التطور الطبيعي لتقدم وتحضر المصريين، ويتساءل في السياق نفسه قائلاً: من يا ترى المسؤول عن حرمان المصريين من بلوغ المستوى الحضاري الراقي الذي يجعلهم قادرين على الاستمتاع بتذوق الفنون على اختلاف مجالاتها؟

ويطالب الدكتور منصور بإعادة النظر في البنية الأساسية للإنسان المصري الذي تكاثفت عوامل عديدة من أجل حرمانه من القدرة على التطور وازدادت عليه بالتوقف وخياله بالجدب - حسب تعبير الناقد - مما جعله غير قادر على القيام بدوره - سبق لأسلافه القيام به على خير وجه - من أجل تطور الحياة البشرية.

ويضيف منصور متسائلاً: ولا ندري هل هناك في مصر اليوم المؤسسات التي تعنى بدراسة تلك الموضوعات المصرية، والتي ترصد بكل دقة الأسباب والعوامل التي تعوق تقدم الإنسان المصري وتحضره، ومن ثم تقترح الحلول الملائمة، ويضيف مستمراً في تساؤله:

هل نستظل دراسة ومتابعة تطور ونمو المجتمع المصري مقصورة على الهيئات الأجنبية التي تجمع معاهد ومؤسسات خاصة فيها كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر وتخضعها للدراسة والتحليل وتكون بها قاعدة علمية

يرتكز عليها في اتخاذ القرارات؟

ثم يضيف مردفاً: إن مصر بموقعها الجغرافي وتاريخها وتعداد سكانها لا تتوازن بكل هذه المقومات مع حالتها الثقافية المتواضعة التي أمنت في أشد الحاجة إلى إعادة النظر في مخططاتها الثقافية المستقبلية برؤية علمية وموضوعية لا تتكفي بالمشاعر الجوفاء التي لا تعبر عن واقع الأمر.

## جريمة تجميل مصر

في هذا الباب يتناول الدكتور صبري منصور التجميل في مصر بين التخطيط والعشوائية حيث انتشرت ظاهرة جديدة هي انتشار بعض الأعمال التشكيلية في الميادين العامة وامتدت إلى اسطح وجدران المباني والأسوار، وقد بدأت الظاهرة في مدينة الإسكندرية حيث خلقت نموذجاً سريعاً ما انتقل تأثيره إلى محافظات الجيزة والقاهرة والأقصر وقنا.

ورغم إنشاء منصور على فكرة تجميل الميادين العامة إلا أنه يقول إن الفكرة ذات النوايا الطيبة والهدف النبيل تم إفسادها حيث جاءت معظم المشاريع التجميلية مخيبة للأمل، لأنها لا تتناسب إطلاقاً مع تاريخ مصر الفني العريق، وما تحفل به البلاد من آثار فنية خالدة كان أهم سماتها العظمة والجلال، بل إن بعض هذه الأعمال التجميلية الحديثة تتناقض مع الغرض الذي أقيمت من أجله، فبدلاً من نشر الجمال والتذوق الرفيع، فإنها تجسد القبح بما تحتوي عليه من قبح جمالية مشوهة، وأشكال قبيحة وألوان منفردة.

ويضيف صبري منصور: إن المرء ليجعب

كيف استطاع المصريون في بداية نهضتهم إقامة صروح فنية ذات قيمة جمالية رفيعة تتمثل نهضة مصر، بينما لا يستطيعون اليوم بعد عقود زمنية عديدة، وتنمية تعليمية وثقافية مستمرة، وازدياد أعداد الفنانين والحضاري، ويعلم الدكتور منصور موقفه بأن مدينة الأقصر تتمتع بخصوصية فريدة، فهي من أهم مدن العالم الأثرية، بما تحتوي عليه من كنوز حضارية إنسانية راقية وتضم معابدها ومقابر ملوكها من الأعمال التاريخية - في فني النحت والتصوير - ما يعد إعجازاً بشرياً في كمال الذوق الفني وقوته ورافاته، أضحت من صفات المصريين - حسب منصور - خلال العقود الماضية، فاندعام التخطيط، والتسرع في التفكير، وعدم منج الوقت الكافي لدراسة المشروعات اكتشافاً باسمها الرنان ومعناها السامي، وسيطرة جهاز الإداريين من الموظفين على آراء المتخصصين والدارسين، وينتقد منصور الحالة التجميلية لدينة القاهرة الكبرى قائلاً: تعج المدينة بالأعمال النحتية الركيكة واللوحات الجدارية الهابطة فنياً، والنوافير الرخيصة، مما يسبب إلى تاريخ المدينة ومكانتها، ويقدم الدليل على تخلف الجهاز الإداري وجهله بتسوؤن التعمير والتجميل.

أما عن تجميل مدينة الأقصر الذي يبتناه

مجلس مدينتها في السنوات الأخيرة فيقول عنه إنه مأساة فنية بكل المقاييس ويستحق من تولى الإشراف الموافقة على المشروعات التجميلية فيها أن تتم مساءلته بتهمة إفساد الذوق العام والإساءة إلى تاريخ مصر الفني والحضاري، ويعلم الدكتور منصور موقفه في مدينة الأقصر تتمتع بخصوصية فريدة، فهي من أهم مدن العالم الأثرية، بما تحتوي عليه من كنوز حضارية إنسانية راقية وتضم معابدها ومقابر ملوكها من الأعمال التاريخية - في فني النحت والتصوير - ما يعد إعجازاً بشرياً في كمال الذوق الفني وقوته ورافاته، وينتقد منصور ما يسميه النوافير غريبة الشكل والتصميم منفرة اللون التي حد إيداء العين المدربة الحساسة، ويرى أن ذلك يمثل نوعاً من التلوث البصري ينتشره المسؤولون في أرجاء مدينة عريقة تميزها معابدها الدينية القديمة.

## ملامح التأثير بالفن الغربي

في أحد أهم موضوعات الكتاب، الذي جاء تحت عنوان «مصاعب وأفاق الفن المصري الحديث»، يتناول الدكتور صبري منصور عدداً من الأفكار الرئيسية وعلى رأسها الفن وخصوصية الثقافة ويرى أن الثورة الصناعية التي نقلت الغرب إلى مساحة واسعة من التفوق الحضاري جعل الشعوب الأخرى تسعى إلى نقل التجربة مع ما يمثلته ذلك من خطورة على سمات الخصوصية الثقافية ومعالم الهوية، ويرى أن هذه الإشكالية من أهم الإشكاليات التي تواجهها فنون الدول النامية، ويدعو إلى ضرورة التخلص من التبعية التي أفلتت



المشروع الاستعماري.

وعن علاقتنا بالفن الغربي يقول منصور إن أنصار المصريين المتحمين الجدد لعالم الإبداع أتجوه صوب الغرب ليتمتدوا إنجازاته الكبرى وينقلوا أساليبه الفنية، ويحتذوا نماذجها الشهيرة، ويتعلموا تقنياته ومهاراته، ويؤكد منصور أنه بالفعل ظهرت أعمال فنية كشفت عن مهارات المصريين العالية وحساسيتهم الفنية، لكنه في المقابل يرى المشكلة تكمن في بقاء الإبداع الفني ثابتاً على النهج الاتباعي الذي كان يتأكد وجوده أحياناً، ويقل تأثيره في أحيان أخرى، ويضيف منصور إن هذا الوضع ظل عامل ضغط على الإبداع المصري وموقفاً لعوامل تشككه وهو ما أثار بشكل واسع قضية الأصالة والمعاصرة حيث تبنى دعاة الأصالة فكرة الفن القومي الذي يتصل بعناصر التراث المصري الفني بشكل أو بآخر، في حين نادى أصحاب الدعوة للمعاصرة إلى نيل القديم واقتفاء أثر المدارس الفنية الغربية

التي انبثقت من حقلها من خلال فنون الشرق الأوسط، وقد بدأنا نرى في بعض الأعمال الفنية الحديثة، بل من الهرب لحظة إلى مرجح السنايل أو لإلقاء نظرة على النجم المحمول على برتقالة بيروت شامتت كيف تطورت رحلتك الشعرية إلى أن تجاوزت حدود المكان والزمان واللغة. شامتت كيف أصبحت عنواناً مضميناً لقضية الإنسان، فتحوّلت فلسطين من خلاك إلى قضية عالمية. كنت ما زلت تنتمي لسماكك الأولى وللقرى في كل الأزقة، وما زلت تمر فوق أفئدة الملايين الأسيرة، وما زال جلدك عيابة كل فلاح سياحياً من حقل التبع كي يلغي العواصم. كنت تشكك من بريودك أن تكتب لحديث ما، أو أن تقرأ ما كتبت قديماً وكأنت لم يلاحظوا السبابة التي قطعها النهار بعيداً عن المنابع، ومدى العبق الذي امتدت إليه الجذور. ولكن حينما ظلت معك وظلت راحة الزرع الفلسطيني تلاقح حتى تل الزرع.

وفي بيروت، بينما حلمت وحنمنا معك بالوطن البسيط، وبين أزيز الرصاص ودوي المدافع، جلسنا أحياناً لتابع الزرد ولنستمع إلى آخر الأخبار عن آخر وفق لإلحاق النار. شاهدت معك كيف مشيت الخيول على العصافير الصغيرة. وخلال ذلك كله، حلمنا أن نصاب بالوطن البسيط وباحتمال التبعية. وكنت أراقم بالوطن البسيط عندما مراني بحر بيروت بالحقيقية وأعادني إلى شواطئ نيويورك الصاخبة. وكلما التفت إلى الوراء وجدت بيروت، ورايتك تصعد من شظايا أدمت جسدك. رايتك تصعد من هواء البحر كي ترى حيفا. بقيت في بيروت العشيقة المعذبة. بقيت تحلم وتنتظر ما بات أمراً مالوفاً: كلما أخيت عاصمة رمتني بالحقيقية. وبقيت في بيروت حتى جاء التتار من جديد.

كانت بيروت حبيبة ظلمة ومظلومة احتضنتنا حتى صار بحرنا طلقنا الأخيرة. ربما أكلنا من فاحشا فلم تتأخر العقوبة. ولكني ظلت أشاهدك لأنك تجاوزت حدود العواصم فسكتت في كل العواصم. ظلت أراك كما رايتك دائماً تصعد نحو السماء، ليس لأنها غايته، بل لكي تصعد منها إلى أعلى. كنت أراك تتحاصر الموت حتى صرت عصيا عليه. إنك لم ترحل وستبقى معنا والأجيال القادمة التي ستجدك في الأزقة والمزارع، وفي المدارس والمصانع، وستجدك على كل صخرة صلى عليها والد لتصون ثائراً.

في حيفا، بعد غياب طويل، عدت إلى شارع عباس حيث يلتقي بالجادة العريضة الممتدة إلى أسفل من بوابة حديقة البهاثيين، وكأنها ذراع يمدّها بالرواد من كل مكان، وقد أطلقوا عليها اسم: بيروت حيفا. سألت أحد الرواد على المائدة الجاورة: هل ذلك الشارع هو شارع عباس؟ قال نعم. سألته: وهل تعرف بيت محمود درويش؟ قال: في كل بيت. قلت لي مرة في بيروت، أنك إذا وجدت اسمي في قائمة قتلى الرصاص الطائش في جريدة الصباح، فإنك لا تعديني برثائي، ولكنت قد تترف دمة أو دمعتين. وأنا اليوم لا أرتيك ولا أبكيك، لأنك ما زلت سلم الكرمل، وما زلت حيا في جروح التين والزيتون. لكنني لا أخفي عليك أنني لا زلت أبكي كلما تصورتك تنكي وحيدا وتخفي عنا دموع السرية في كل مخاض لكل قصيدة جديدة. أخي محمود، لن يسرقوك من الأبد. فأنت البلاد، وقد أتت إليك، وتقمصتك. وأنت الذهاب المستمر إلى البلاد. قصيدتك لا تنتهي. فستظل تتجدد كما تتجدد أزهار اللوز ومثلما تتجدد مواسم القمح والزيتون والبرتقال. سيقراها الأحفاد جيلا بعد جيل، وسيعترفون في رحمها على قصائدك الجديدة. ألم يقل كنفوشيسو قبل الفين وخمسة مائة أن الكلمات تبقى على مدار العصور المتغيرة ولكنها تحمل، في كل عصر، معاني وأبعاداً جديدة؟

شاعرة من فلسطين \* إعلامي مقبم في الولايات المتحدة

## تداعيات

### رسالة إلى محمود درويش: ما زلت حيا في جروح التين والزيتون

يونس حمدان \*

■ عندما ضمنا حوض حيفا معاً لأول مرة كانت النكبة قد غرست سكينها في جسدنا الجماعي منذ ما يزيد على عقد. كانت تلك أول مرة أقابل فيها إنساناً شاباً لا يخشى الحاكم العسكري ولا يخاف من سجنائه، فيعلن بصوت صاف كصباح صيف جليلي أن اسم فلسطين يستحق الحياة على هذه الأرض. كنت قد أطلت للدنيا أنك عاشق من فلسطين التي كانوا يحاولون إخفاء جثتها العنيدة، ورسمت بأزهي الألوان الأصيلة خارطة التواصل العضوي بين الأرض والجسد الفلسطيني وبين العيون الكرملية وأوراق الزيتون. كنت قد أطلقت صوتك المدوية، التي ما زالت تنمو في حناجر أطفال لم تلدهم أمهاتهم بعد: سجل أنا عربي!

كانت تلك السنوات القليلة، التي عشناها يوماً على صدر يوم في ظلال الكرمل، حافلة بالأصدقاء من حيفا والمثلث والجليل. وكانت حافلة بالفرح المزوج بالحزن والألم المزوج بالأمل. وكان أكثر الأيام إثارة، عندما كنت تهمس في أذن أحدها أن قصيدة جديدة قد ولدت. كان الخبر ينتشر بيننا كالنار في الهشيم المجفف باشعة الشمس، وكراثة الخبز قرب فرن في زقاق المدينة. وما هي إلا ساعات حتى نجد أنفسنا في بيت أحدها، أو في المقهى، لتقرأ علينا القصيدة الجديدة. وفي كل مرة، كنا نكتشف أنك لم تكن تقرأ، بل كنت في غيبوبة القراءة، وأنت لم تكن تستمع، بل كنا في غيبوبة الاستماع. ولم يكن وقت القراءة كافياً لاستيعاب كل ما في عالم القصيدة الحافل بأبهي الصور، والزخار بأسمى المشاعر والمعاني، وبتلك الموسيقى الشعرية الغريبة في روحها. كنا نصمت بعد ذلك، وكنت تقرأ على وجوهنا أن القصيدة يجب أن تنتشر، وأن تنتشر سريعاً في «الاتحاد» اليومية لأننا لن نقوى على انتظار «الجديد» الشهرية، إلا إذا كان موعد صدورها قد حان.

كانت الكلمات تظل تتردد في أذهاننا وتسري في عروقنا حتى تنشر بعد يوم أو يومين، ونقرأها ونعيد قراءتها ونلمس نبض كلماتها بأصابعنا. كنا نذهب بعيداً في دمك، ونكتشف أن الهلال تقمصتك، وأنت تقمصتنا، فصرت ناطقا لقطرات الدم في عروقنا.

في كل مرة، كنت تهدينا أجمل وأعلى هدية يهديها إنسان لإنسان. كنا نشعر بالكرامة. كنا نمشي في الشوارع مرفوعي الهامات، ونعمل بكرامة، ونمرح بكرامة، ونستمع إلى أم كلثوم يوم الخميس بكرامة. وكانت الكرامة تعطينا القوة للصعود على سالام المدينة من الميناء، حيث يغسل الكرمل أقدامه، إلى بيتك المحمول على خاصرة الكرمل. لم تنعب أبداً، فلا يتعب من يصعد السلالم وهو يردد: والغاتحون على سطح منازلنا/ لم يفتحوا إلا وعود زلزالنا!

أذكر عندما سألتك مرة، وكنا وحيدين في بيتك، لماذا كتبت سرا ولا ندري عن القصيدة إلا عندما تكون جاهزة للنشر؟ فهمت من إجابتك لماذا تحتاج إلى الوحدة أحياناً مع أنك أحببت أن تكون في حضرة الأصدقاء. فهمت المخاض العسير لولادة القصيدة. قلت أنك لا تستطيع أن تكون بصحبة الآخرين عندما تكتب، لأنك تنكي وأنت تكتب، وأن الألم يستبد بك لدرجة أن ما يقع على الورق هو مزيج من الحبر والدموع. كنت تترك مكاناً للعصافير التي تبحث عن القمح في الفجوات التي يمتصها النور في عينيك. تأكدت يوماً، أنك تكتب بماء القلب والعينين، وفهمت بعد ذلك أن هذا ما جعلك تملأ القلوب والعيون على هذه الأرض، وعلى كل أرض.

كما هي عادة هذه الأرض المروية بدموع الفراق، كان لا بد لحبل الوصل أن ينقطع. أذكر آخر مرة التقينا في حيفا، كان ذلك في بيتك في شارع عباس، حيث حضرنا، صديقنا الشاعر سميح القاسم وأنا، وكنت في استقبال الصديق الشاعر راشد حسين، الذي جاء من المثلث مودعا بعد أن ناداه جرس عبر المحيط. قلنا لكما جئنا تحتفل بمناسبة استلام قرار الدولة بطردنا من مهنة التدريس لدواعٍ «تربوية»، كما تذكر، كما سمح وأنا، قد عملنا في نفس المدرسة الكرملية، ولكنهم اكتشفوا بعد سنوات أننا لم تكن مؤهلين للوظيفة، لا لشيء سوى مصلحة التربية لأولادنا وبناتنا، واحتفلت معنا حقاً، لأنك طالما سحرت من بدلاتنا وربطات العنق وكل قبود الوظيفة الأخرى. لقد فرحت معنا بجرئتنا الجديدة وبكرامة التحدي.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفنا أن تلك العقوبة كانت لها عواقب أخرى. كان لا بد من الرحيل عن حيفا، وكان لا بد من فراق الأصدقاء. ثم امتصك جرس في صوفيا، وامتصني جرس في نيويورك. ومر عام على اكتشاف عام، إلى أن تراكمت الأعمار على عقد من الزمان، والتقينا مرة أخرى، هذه المرة في حوض بيروت. ذلك الحوض الخنون كخند الورد، والقاسم كشوك الصبار. وجدتك كما كنت دائماً، حساساً إلى حد التفاعل مع هوموم الفراشة، رفيقاً إلى حد الإحتماء بقشرة شافة من الصلابة، وقاتلاً ذروباً تسمي إلى تلمس كل بعد من أبعاد التجربة الإنسانية العميقة. كان بعض الشهود الصمت ما زال يتخلل المناقشات. ففي غياب الوطن البسيط، وفي ظل انفجار البفصص في القفظة، لا بد من الهرب لحظة إلى مرجح السنايل أو لإلقاء نظرة على النجم المحمول على برتقالة.

في بيروت شامتت كيف تطورت رحلتك الشعرية إلى أن تجاوزت حدود المكان والزمان واللغة. شامتت كيف أصبحت عنواناً مضميناً لقضية الإنسان، فتحوّلت فلسطين من خلاك إلى قضية عالمية. كنت ما زلت تنتمي لسماكك الأولى وللقرى في كل الأزقة، وما زلت تمر فوق أفئدة الملايين الأسيرة، وما زال جلدك عيابة كل فلاح سياحياً من حقل التبع كي يلغي العواصم. كنت تشكك من بريودك أن تكتب لحديث ما، أو أن تقرأ ما كتبت قديماً وكأنت لم يلاحظوا السبابة التي قطعها النهار بعيداً عن المنابع، ومدى العبق الذي امتدت إليه الجذور. ولكن حينما ظلت معك وظلت راحة الزرع الفلسطيني تلاقح حتى تل الزرع.

وفي بيروت، بينما حلمت وحنمنا معك بالوطن البسيط، وبين أزيز الرصاص ودوي المدافع، جلسنا أحياناً لتابع الزرد ولنستمع إلى آخر الأخبار عن آخر وفق لإلحاق النار. شاهدت معك كيف مشيت الخيول على العصافير الصغيرة. وخلال ذلك كله، حلمنا أن نصاب بالوطن البسيط وباحتمال التبعية. وكنت أراقم بالوطن البسيط عندما مراني بحر بيروت بالحقيقية وأعادني إلى شواطئ نيويورك الصاخبة. وكلما التفت إلى الوراء وجدت بيروت، ورايتك تصعد من شظايا أدمت جسدك. رايتك تصعد من هواء البحر كي ترى حيفا. بقيت في بيروت العشيقة المعذبة. بقيت تحلم وتنتظر ما بات أمراً مالوفاً: كلما أخيت عاصمة رمتني بالحقيقية. وبقيت في بيروت حتى جاء التتار من جديد.

كانت بيروت حبيبة ظلمة ومظلومة احتضنتنا حتى صار بحرنا طلقنا الأخيرة. ربما أكلنا من فاحشا فلم تتأخر العقوبة. ولكني ظلت أشاهدك لأنك تجاوزت حدود العواصم فسكتت في كل العواصم. ظلت أراك كما رايتك دائماً تصعد نحو السماء، ليس لأنها غايته، بل لكي تصعد منها إلى أعلى. كنت أراك تتحاصر الموت حتى صرت عصيا عليه. إنك لم ترحل وستبقى معنا والأجيال القادمة التي ستجدك في الأزقة والمزارع، وفي المدارس والمصانع، وستجدك على كل صخرة صلى عليها والد لتصون ثائراً.

في حيفا، بعد غياب طويل، عدت إلى شارع عباس حيث يلتقي بالجادة العريضة الممتدة إلى أسفل من بوابة حديقة البهاثيين، وكأنها ذراع يمدّها بالرواد من كل مكان، وقد أطلقوا عليها اسم: بيروت حيفا. سألت أحد الرواد على المائدة الجاورة: هل ذلك الشارع هو شارع عباس؟ قال نعم. سألته: وهل تعرف بيت محمود درويش؟ قال: في كل بيت. قلت لي مرة في بيروت، أنك إذا وجدت اسمي في قائمة قتلى الرصاص الطائش في جريدة الصباح، فإنك لا تعديني برثائي، ولكنت قد تترف دمة أو دمعتين. وأنا اليوم لا أرتيك ولا أبكيك، لأنك ما زلت سلم الكرمل، وما زلت حيا في جروح التين والزيتون. لكنني لا أخفي عليك أنني لا زلت أبكي كلما تصورتك تنكي وحيدا وتخفي عنا دموع السرية في كل مخاض لكل قصيدة جديدة. أخي محمود، لن يسرقوك من الأبد. فأنت البلاد، وقد أتت إليك، وتقمصتك. وأنت الذهاب المستمر إلى البلاد. قصيدتك لا تنتهي. فستظل تتجدد كما تتجدد أزهار اللوز ومثلما تتجدد مواسم القمح والزيتون والبرتقال. سيقراها الأحفاد جيلا بعد جيل، وسيعترفون في رحمها على قصائدك الجديدة. ألم يقل كنفوشيسو قبل الفين وخمسة مائة أن الكلمات تبقى على مدار العصور المتغيرة ولكنها تحمل، في كل عصر، معاني وأبعاداً جديدة؟

شاعرة من فلسطين \* إعلامي مقبم في الولايات المتحدة

